

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله ؛ نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله ؛ فلا مضلّ له ، ومن يُضلل ؛ فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾ ﴾

[الأحزاب : ٧٧] .

أما بعد ؛ فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكلُّ محدثة بدعة وكلُّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة فى النار

قال الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل » .

هذه العبارة الرائعة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى قاضيه أبى موسى الأشعري ، ينبهه وينبه الأجيال من بعده إلى مبدأ هام ينبغى أن يتربى عليه الفرد والمجتمع المسلم ألا وهو المراجعة .

فالإنسان بطبعه خطاء ، وكلما تحرك وعمل كلما زاد زلله ؛ لأنه لا عصمة بعد النبوة ولا سبيل بالطبع للوقوف على هذا الخطأ ومعالجته إلا بالمراجعة ، وهو أمر لا غنى عنه للفرد ، وللجماعة بل وللأمة جميعاً ، والمراجعة أول طريق الأوبة لله والتصحيح ، لذا كان الأمر الشرعى بالحاسبة والمراجعة . والآن لماذا المراجعة ؟

أسباب كثيرة تُوجب هذه المراجعة أبرزها اكتشاف الأخطاء والأوبة منها ، وتصحيح المسار ، وكف النفس عن العجب والغرور بما تعلم من أخطائها لتتواضع لله وتخضع له ، هذا فضلاً عن أثرها فى إثراء الفقه بالحوار مع النفس والغير ، وتنشيط روح الاجتهاد ، والتخلى عن الجمود على القديم وإدعاء العصمة له مع

تأكيد مرجعية الشرع ، والتخلص من المرجعيات الدنيوية للأشخاص أو المبادئ والأفكار ، ولا يخفى أثر تكرار المراجعة فى تربية المجتمع على إحسان الظن بالناصحين ، وافترض الصدق فيهم ، فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق الناس بها (١) ، وكثيراً ما يغفل المسلم عن القصور فى عمله أو عيوب نفسه حتى يرشده ناصح رشيد إليها .: وتزداد المسألة أهمية وحيوية لأولئك الذين يتصدون لقيادة الناس فإن المقدم إذا زلَّ زُلَّ بزُلته آخرون .. لذا فمراجعة المقدم تكون مهمة له ولغيره .

إذن .. هى مسألة فى منتهى الأهمية للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة لتصحيح مسارها وضبط حركتها .

فلماذا إذن لا يحدث هذا .. ولماذا تقصر الجماعات المسلمة فى واجب كهذا . ولماذا نتيجة ذلك تتضاعف مواطن القصور ، وتتضخم بمرور الأزمان بدلاً من أن تعالج وتوضع فى موضعها الصحيح .

(١) رواه الترمذى [٢٦٨٧] وابن ماجه [٤١٦٩] وقال الألبانى :

ضعيف جداً

الحق أن هناك كثيرا من المعوقات تعطل الاستفادة من هذا الفرض
الهام نسوقها على وجه الاختصار فمنها :

١ - إحسان الظن بالنفس والإعجاب بالعمل :

فالإنسان مفتون بما يصنع ، ولذا فكثيرا ما تستدرج الجماعات
والأمم حين يتسرب إليها هذا الغرور والعجب والاتكال على
صلاح موهوم فتحسب إنها بلغت بأعمالها الكمال الذى لا ينبغي
أن يفتش معه عن عيوب أو قصور ، بينما يعلق القرآن الكريم على
صحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما انكسروا فى أحد ﴿ أَوْ لَمَّا
أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

فأى جماعة بعد خير القرون تخلوا من نقص وقصور .
ومن أكثر ما ينمى هذا العجب حسن الظن بالنفس وتحقير عمل
الغير والاعتزاز بالنفس ومغالاة الاتباع ، وغلوهم فى إطراء طائفتهم
ومشايخهم وثنائهم عليهم فى وجوههم .

٢ - تقديس المقدمين والمغالاة فيهم :

وما أعظم سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وهو ينهى عن المغالاة

٤ - مصادرة الرأى الآخر وإرهابه :

وهو ثمرة من ثمرات سنين القهر والاستبداد الطويلة التى عانى منها المجتمع المسلم حتى اعتاد الناس كل الناس والجماعات الإسلامية منهم على الرأى الأوحى ، ومصادرة الرأى الآخر وإخراجه من دائرة الحق ، بل والدين .. وما أسهل أن تطلأ الأحكام الجاهزة الحاسمة كل من له رأى آخر ، وسرعان ما تطلق عليه الألقاب الجاهزة فهو متخاذل أو منافق أو خارجى أو مرجئ أو .. إلى آخر هذا القاموس المعروف

فإن لم يكن لك نصيب من هذه الألقاب فانتظر تشهيرا يطال دينك أو عرضك أو أهلك ذما وتحريضا عليك .

ولذا فكل من يفكر فى مراجعة نفسه ، أو تقويم بعض مما يعتقد ، أو يعمل - بتردد - كثيراً إما توقعاته لحملة الإرهاب هذه ، والاتهامات المتنوعة كالفتنة فى الدين وعدم الثبات ومثل ذلك .

٥ - شماتة الشائئين :

وذلك أن الكثيرين لا يفرقون بين النصيحة والتعبير ، وما إن يتراجع أحدهم عن رؤية يراها حتى تنطلق الأبواق تعيره بهذا التراجع وتطعن فيما عليه من منهج ، وترى فى ذلك فرصتها فى

الدعاية لمناهجها عن طريق السخرية من الآخرين مظهرة الشماتة فيه بينما المفروض فى هذه الظروف أن يمدح على مراجعته وتراجعته عن الخطأ لا أن يذم على خطئه المتراجع عنه .

٥ - الفهم الخاطئ بأن التصويب يعنى اهدار الفضل :

يظن البعض - مخطئاً - : أن المجتهد المتبوع ينبغى أن تقبل قوله كله وندافع عنه ولا ننكر عليه خطأ ، وإن عُزِيَ عن الصواب ، وذلك حفظاً لفضله ، ومكانته وإن مجرد مناقشة ذلك وطرح الرأى المقابل انتقاص من فضل ذلك المجتهد ، وإهدار لمكانته .. بينما لا يخلو مجتهد من خطأ أو خلل لعدم العصمة ، والمولى عز وجل بيّن أن المجتهد مأجور ولو كان مخطئاً ؛ أى إن فضله محفوظ حتى ولو أخطأ .. فالنقد هنا ليس مذموماً ، وإنما يُذم عندما يتحول من نقد غرضه سد الخلة إلى نقد يراد به الهدم والإهدار وإن من الخلل أن يتحول الحب إلى تقبل الصواب والخطأ ، والبغض إلى إهدار الصواب كما يهدر الخطأ ، والحق المطلق لا يكون فى شخص أو جماعة كائنا من كانوا - بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم - وكل من طلب الحق مأجور حتى وإن أخطأه ولا يوصف بالمتبدع والفاسق طالما بذل فى ذلك الوسع ،

وفى هذا يقول الحافظ الذهبى كلاماً جميلاً : « لو أنا كلما أخطأ
إمام خطأ فى اجتهاده فى آحاد المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه
وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر
منهما » (١) .

٦ - العلاقة التصادمية بين فصائل العمل الإسلامى :

الأصل أن تكون العلاقة بين فصائل العمل الإسلامى علاقة
تكاملية تضيف كل منها جهدها إلى الأخرى ، وتعذر كل منها
الأخرى إن قصرت .. ولكن وللأسف الشديد ، تشوب العلاقة
بين فصائل العمل الإسلامى روح التحفز والتربص والنظرة الحزبية
الضيقة والرغبة فى التنامى على حساب بعضهم البعض .. وهذا
يجعل من عملية المراجعة والرجوع عن الخطأ من الصعوبة بمكان
حذرا من الوقوع تحت براثن الجماعات الأخرى ، واستخدام ذلك
فى التشهير .

وأخطئ هؤلاء حين اعتبروا المراجعة والتراجع عيبا يُشهر به
والأولى أن تكون سبباً للمدح والإشادة وإن تلقى مثل هذه الخطوة
.. التشجيع لتتسع دائرة المراجعة بين الجميع .

(١) سير أعلام النبلاء [٤٠/١٤] .

وفى هذا المعنى روى الحديث الشريف : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويتليك » (١) .

٧ - توهم فتنة الأتباع :

وهى مشكلة خطيرة أن يظن البعض أن اطلاع الأتباع على الخطأ المتراجع عنه والإقرار بذلك الخلل والرجوع عنه من شأنه أن يرددهم عن التمسك بالمنهج .. بل وربما ينفهم عن الطريق كله ، وذلك هو الخطأ كل الخطأ إذ ينبغى أن يتربى الجميع على أن الإنسان بطبعه خطأ وأن العصمة ذهبت بذهاب الرسل وأن الإنسان ما دام يعمل فلا بد أن يخطئ ، بينما لا يخطئ الساكن المتقاعد .
ينبغى أن يتعلم ذلك عملياً لا نظرياً فما أكثر ما نردد ذلك ولكن تطبيقه غير ذلك ، أن الفتنة إنما تكون فى الاستمرار على الخطأ ، وإن الحق والصواب لا يكونان أبداً مصدرأ للفتنة ، وإن من يفتنه الحق أبعد الله .

(١) رواه الترمذى [٢٥٠٦] عن وائلة بن الأسقع رضى الله تعالى عنه وقال الألبانى : ضعيف

٨ - الخطأ فى مفهوم الثبات على الحق :

« الثبات على الحق واجب » حقيقة لا مرأى فيها ، ونحن مأمورون أن ندور مع الحق حيث كان ، هذا الأصل لا يعنى أن تصور أن الحق هو اجتهادات البشر ؛ لأن اجتهادات البشر تصيب وتخطئ ، ولسنا مطالبين بالتمسك بها على كل حال أصابت أو أخطأت ، بل إن المتجرد فى الثبات على الحق لا يتردد فى ترك اجتهاداته ما وجد الصواب فى غيرها ، ولا يعد ذلك عدم ثبات على الحق بل إن ذلك هو عين الثبات على الحق ، وكم رأينا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يغيرون من اجتهاداتهم لما تبين لهم الحق فى خلاف ذلك .. بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر غير موضع نزوله لما أشار عليه « الحباب بن المنذر » بمكان هو أصلح ، ولم يعتبر أن بقاءه فى مكانه الأول من الثبات على الرأى .. فإذا غير سادتنا اجتهاداتهم أفلا نغير نحن ذلك ، ومن نحن إلى جوار هؤلاء .

٩ - الضغوط المتوالية ، وسياسات الإجهاض وتجفيف المنابع :-
وكلها سياسات أمنية يراد بها مطاردة تواجد الجماعات ومحاولة تخليص المجتمع منها .. وهذه الضغوط بدلا من أن تحقق هذه

الأهداف فإنها تشيع بينهم ضرراً أشد إذ أنها لا تعطى فرصة للشباب أن يتوقف ليراجع نفسه بصدق لينظر ماذا قدم ، وما مدى موافقة ما قدمه للصواب وللنهج السليم .. بل على العكس تزيد من تشبته بفكره وعقيدته إذ أنه ليس من السهل أن يتخلى عن فكرة أُوذَى بسببها ، وضحى بزهرة شبابه من أجلها ، وهل يذهب كل ذلك هباء .

نعم ؛ شدة الظروف والتضييق معوق أساسى للمراجعة ، وحاجز أمام العقل أن يصحح ويسدد ويقوم خاصة بين الشباب الذى تسيطر عليه المثالية والحماسة وشدة الاندفاع وقلة التروى ، وهى خصائص لا تنفك عنه بطبيعته (١) .

وبعد ..

هذه بعض معوقات المراجعة هانحن نشير إليها موجزة لنبيه أنفسنا ، وإخواننا إلى السعى لتجاوزها وتذليلها ، لا نطمع من ذلك إلا إرضاء الله عز وجل ، وهى حرية بالبحث عن معالجة لها تبدأ باستحضار استرضاء الله عز وجل وهو أول أهداف المؤمن

(١) راجع بحث مفصل حول هذا الموضوع لمحمد مصطفى المقرئ

لمجلة المنار الجديد « عدد ١٣ » .

بالبحث عن الحق حيث كان وتنتهى بالجرأة على مواجهتها بعواقبها
والاستعانة بالله على تذليلها .

ونعود لنقرر أن الثبات الصحيح على الحق إنما يكون فى الدوران
معه حيث دار لا بالوقوف حيث تتجمد العقول والاجتهادات
حتى وإن فارقتها الحق .
والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل .



بين يدي البحث

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ ﴾ . [آل عمران : ١١٠] .

مدخل

أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم برسالاته الخاتمة ، وقضى أنه لا نبي بعده (١) ، وأن رسالة الإسلام

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

وروى البخارى [٣٣٤٢] ومسلم [٢٢٨٦ / ٢٢] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسولا الله صلى الله عليه وسلم قال : مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين .

وعند ابي داود [٤٢٥٢] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : .. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبيّ وأنا خاتم النبيين لا نبيّ بعدي. وصححه الألباني

وعند ابن ماجة [١٢١] عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه =

باقية إلى قيام الساعة^(١) ، ولذلك كان طبيعيا أن تحمل هذه الرسالة فى داخلها عوامل خلودها التى تحفظ عليها حيويتها وبقاءها إلى الأبد ، وتجعلها صالحة لقضاء مصالح العباد الآخروية والدينية على مر الأزمان والأمكنة .

= قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي رضى الله تعالى عنه: « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » وصححه الألباني .

(١) روى النسائي فى المجتبى [١٥٧٨/١٨٨/٣] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته يحمد الله ويشنى عليه بما هو أهله ثم يقول من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ثم يقول بعثت أنا والساعة كهاتين وكان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساءكم ثم قال من ترك مالا فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فالى أو على وأنا أولى بالمؤمنين .

فكان من عوامل خلودها أن شرع الجهاد ليحمى المسلمون
أمتهم ودعوتهم من العادية الخارجة عنهم من غيرهم ، ولتحطيم
عناد المحاربين لأمة الإسلام ودولته من أعدائهم .

وشرعت الدعوة لنشر الدين وتوسيع رقعته لاستنقاذ الناس من
ربقة الضلالة والشرك إلى رحبة الإسلام الفسيحة ، ومن جور
الأديان إلى عدل الإسلام وسماحته .

وشرعت الحسبة - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - لحماية
المجتمع من الداخل أى من أبنائه إذا حادوا عن تعاليمه .. فيحمى
العقيدة والفكر من الابتداع ليحفظ لها صفاءها ونقاءها ويحمى
تلك الشرائع من التحريف والتزييف ، ويحمى تعاليمها فى واقعها
التطبيقي من أن يتسرب إليها التهاون بها والتقصير فى حقها
والعمل فيها بالمعصية والدعوة إليها ليكون التطبيق العملى لتلك
الرسالة الغراء معبراً تعبيراً صادقاً عما تحمله من مبادئ عظيمة ، فلا
يتسرب الخلل إليهما على الأصل النظرى أو التطبيق العملى مسبباً
تآكلاً تدريجياً فى ارتباط المجتمع بهما .

ولذلك كان طبيعياً أن يكون لتلك الفريضة أهميتها العظيمة
على صعيدى تربية الفرد والمجتمع المسلم ليكون المجتمع إيجابياً تجاه

ما يراه من خلل فيسعى إلى إصلاحه ، وتكون تلك الإيجابية جزءاً من تكوينه باعتبارها فرضاً دينياً تماماً مثل الصوم والصلاة وغيرها من الفرائض حتى لا ينخر سوس السلبية والأنا مالية في بناء المجتمع فيألف الناس الانحراف ويتعايشون معه إلى أن ينهار المجتمع ويسقط ، والحديث عن وجوب الحسبة على الكفاية أشهر من أن يُنكر وأدلتها منتشرة في كتاب الله العظيم وسنة نبيه وأقوال أهل العلم منها :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

فالآية تجعل الحسبة مناط الفلاح في الدنيا والآخرة .. والأمر وإن كان للوجوب إلا أن التعبير القرآني مستخدماً « منكم » يدل على أنها فرض كفاية بمعنى أنها مفروضة على عموم المجتمع لا على أفراد بمعنى : أن المجتمع مطالب أن يفرز من أفرادها وأجهزته من يستوفى شروط المحتسب من علم ورفق وغيرها من شروط ، وأن يكون منهم من يقوم بهذا الفرض نيابة عن المجتمع فإن قام به من يكفي سقط الفرض عن المجتمع كله ، وإن لم يقم فالإثم لاحق بكل من يقدر عليه شروطاً وأداءً ولا يفعل .

ويقول تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِن دَافَعُوا لِحُجَّتِهِمْ هَدَاهُ اللَّهُ بِإِذْنِهِ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٦٩] .
 وَيَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِن دَافَعُوا لِحُجَّتِهِمْ هَدَاهُ اللَّهُ بِإِذْنِهِ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ
 فِي الْآخِرَةِ ۗ وَأُولَٰئِكَ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾ [آل عمران] .

قال الإمام الغزالي : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (١) .

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْمِعُونَ الصَّلَاةَ وَيُدْفَعُونَ الزُّكُوفَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ ﴾ [التوبة : ٧١] . فالآية قرنت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأهم فرضين إسلاميين هما الصلاة والزكاة تنبيها على أهميتهما وأنها صفة أصيلة في المؤمنين والمؤمنات ثم جعلت ذلك من أسباب الرحمة الربانية .

(١) إحياء علوم الدين [ج ٢ / ٣٠٣] .

بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة] ثم قال : « كلا ! والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً » (١) .

وهذا الحديث مع ما بين من عقوبة نزلت بنى إسرائيل نتيجة تقصيرهم فى هذه الفريضة بتشتيت شملهم وتنافر قلوبهم إلا أنها تشير إلى أمر هام وهو أن رفض القلب للمنكر ينبغى أن ينعكس على الإنسان المسلم وأن يزول عن المنكر ما دام المنكر لم يزل . وفى حديث أبى بكر الصديق : « ما من قوم عملوا بالمعاصى

(١) رواه أبو داود [٤٣٣٦] وضعفه الألبانى .

وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله
بعذاب من عنده » (١) .

والحديثان يبينان عقوبات لترك هذه الفريضة غير ما سبق كإنزال
العذاب والعقوبة أو تسليط الأشرار ، وعدم استجابة الدعاء وغيرها .
والحق أن الآيات والأحاديث التي تعرضت لهذه الشريعة الربانية
أكثر من أن تحصيها تلك الوريقات ، وإن كنا قد أشرنا إلى بعض

(١) روى أبوداود [٤٣٣٨] عن أبي بكر الصديق رضی الله تعالى
عنه قال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنكم تقرؤون
هذه الآية وتضعونها علي غير موضعها ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا
يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥]

وإننا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم : يقول إن الناس إذا رأوا
الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده .
وقال عمرو عن هشيم : وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم : يقول ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرن على أن
يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب .
وصححه الألباني .

منها فلنبين عظم اهتمام الإسلام بها وشدة إلحاح الشرع عليها بما يناسب أهميتها والتنوع فى أساليب الأمر ، والترغيب فيها والترهيب من تركها ، وتشديد العقوبات على ذلك ، كل ذلك ليرسخ فى قلوب المؤمنين الإيجابية تجاه التفريط فى شرائع الدين وكرهية ذلك والسعى لتصحيح الخلل حماية للمجتمع منه تجاه هذا النهج الربانى الذى يلزم الأمة ألا يكتفى أفرادها وهم يرون أمامهم الجرائم تُرتكب من سرقة أو غصب أو غيرها ألا يكتفوا بهزّ أكتافهم والانصراف تاركين الجريمة تنتهك حرمة المجتمع بل تدعوهم للمساهمة فى حماية المجتمع وتجعل من ذلك منطناً للشواب والعقاب ، وتجعل من تقصيرهم سبباً إلى اللعن والطرده من الرحمة الربانية ، لذلك كان طبيعياً أن يسارع المؤمنون على مر العصور لتنفيذ الأمر الربانى .. وكانت إيجابية المجتمع تجاه الانحراف وسعيه لتصحيح عاملاً أساسياً فى رقى المجتمع وحمايته . وكان طبيعياً أيضاً أن تكون هناك تجاوزات فى تنفيذ الأمر إذ أن الناس جميعاً لا يمكن أن يكونوا على علم بفقهِ الأمر ، أو يتحقق فى جميع المواصفات اللازمة فيمن يتصدى له .. بل ومثل كل أمر كثيراً ما يدخل أصحاب الأهواء والأغراض فيه فيزيدوا من التجاوز والخلل فى التطبيق .

وبالطبع سعى المجتمع المسلم منذ أيامه الأولى وإدراكاً منه لأهمية إيجابية أفراد المجتمع أن يضع الآلية المناسبة للقيام بالأمر ، وتدارك ما يمكن تداركه من تلك التجاوزات أو التخفيف منها ما أمكن مع الحفاظ على الصورة التي تفيد المجتمع من هذا الفرض العظيم ، وتحميه من التجاوزات في تطبيقه وتعالجها بما يصلحها .. فكان أن عينوا جهازاً رسمياً للحسبة يقوم بالتصدى للانحراف وينتصب للاستعداد عليه ، متخصصاً في ذلك - وهو ما يدخل في عمل الشرط في هذه الأيام - وهذا الجهاز يملك من السلطة والقوة ما يمكنه من حماية المجتمع من هذه الانحرافات وهو المنوط به بقوة السلطة للتصدى مستعيناً بالجند والأعوان ، وبذلك ضاق كثيراً مجال المحتسب المتطوع .

ثم تصدى العلماء لتفقيه الناس بحدود ذلك الباب من الفقه وبيان شروطه وآدابه .

ثم كانت محاسبة المتجاوزين والمقصرين بقدر تجاوزهم تفهماً للدافع النبيل الذى يدفعهم لفعل ما فعلوا .

والحق أن دور الاحتساب فى الحفاظ على تماسك المجتمع المسلم والحفاظ على كيانه من التهاوى كان عظيماً ..وبقدر وجود هذا

الدور الشعبي فى التفاعل الإيجابى مع مؤسسات المجتمع ، وبقدر ما كان التفهم لهذا الدور واتساع الصدر له ، وتشجيعه - بالحدود الشرعية - بقدر ما تمتع المجتمع بالهدوء والاستقرار . بينما كان انتشار السلبية فى المجتمع والتجاهل والإعراض فى بعض الأوقات سبباً فى انتشار كثير من مظاهر الخلل والانحراف والمجاهرة ، والاستعلان بها مما أدى إلى إنهيار وتفسخ وفساد المجتمع .

ولقد رأينا من أثر تلك السلبية فى بعض الأحيان فى رؤية الناس للجرائم البشعة كالاغتصاب والسرقه وغيرها تحدث عيانا فى الميادين العامة ، ولا يحرك آحاد الناس ساكنا مكثفين بمصممة شفاههم وهز أكتافهم ثم الانصراف خوفاً من الوقوع فى مشاكل هم فى غنى عنها ، بينما لو استشعروا أن دورهم فى التصدى لهذه الجرائم لا يقل عن دور الأجهزة المنوط بها ذلك ، والتي قد تغيب أحياناً عن متابعة كل ما يحدث من جرائم ، وإن هذه المجازفة فى التصدى للمجرمين تكون مصدراً للرحمة والرضا والثواب الربانى .. بل وإن تلك الأجهزة المنوط بها التصدى للمجرمين يصعب عليها أن تقوم بدورها دون تعاون فعال من أفراد المجتمع حتى بعد انتهاء الجريمة ، وذلك فى الضبط والإثبات لو أدرك الناس كل ذلك

لسهلوا كثيراً من فرصة حماية المجتمع من هذه الجرائم ما دامت موافقة للشرع .

ولا يفوتنا الإشارة إلى دور أجهزة الإعلام والدعوة فى حث الناس على التفاعل الإيجابى مع الأجهزة المتصدية للجرائم ومساعدتها فى حماية المجتمع ، وإن تلك الإيجابية فرض كغير ذلك من الفرائض يطالب به الناس من أهل الإيمان وتبصير الناس بما قد يقعون فيه من تجاوزات خلال أدائهم لذلك الدور وتصحيح أخطائهم تفهما للدور الشعبى فى حماية المجتمع ، وحتى لا تترك الساحة للمجرمين يرتعون فيها .

والحق أن هذا الفرض عانى الكثير من الغلو فى تنفيذه حتى تصرف البعض وكأنه كل الدين ، ومعيار الإيمان الذى يقاس به الناس ، وتجاهل هؤلاء أنه فرض ضمن فرائض ، وأنه فرض على الكفاية وأنه فرض أنى يرتبط بلحظة المنكر ثم يزول ، بينما فرض مثل الدعوة هى التى يبنى بها المجتمع ، ويصر بها الناس ، ويربى بها المسلمون على الامتناع عن المخالفة وترسيخ الدين فى القلوب . فالحسبة أمر ربانى ولكنها بعض الدين لا كله ، وهى بعض من

الدعوة التي هي عماد الدين ووسيلة نشره ؛ ولذا ينبغي أن يؤخذ الدين والعمل به كله وتكون الحسبة بعضه بحيث لا تطغى على فرائض أخرى قد تكون في بعض المواضع أولى وأهم .

وبعد .. ونحن إذ نشارك في التصدي لقضية الغلو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجهدنا المتواضع .. إنما نسعى للمساهمة في تفعيل دور أفراد المجتمع بصورة خالية من التجاوز ، والبعث عما شاب التطبيق في مراحل سابقة من تجاوزات كان فيها من الأضرار والمخالفات الشيء الكثير مما فرغ تنفيذ هذه الفريضة من كثير من فاعليتها وأضر بها وبمن قام على تنفيذها .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل .

